الكشف عن الإسرائيليّات في كتب التراث

محمد أحمد كلزيّه

قراءة في كتاب :

الكشف عن الإسرائيليات في كتب التراث

تأليف الأستاذ : محمد أحمد كلزية

عرض ودراسة :

محمد علي كاتبي

أهدى الأستاذ الباحث محمد أحمد كلزية المكتبة العربية سفراً نفيساً ، حقيقٌ بكل مثقف وبكل مسلم الاطلاع عليه ، والوقوف بتأنٍّ عنده، وقراءته قراءة دارس متمعِّن، مهتم بأمر دينه، وثقافته وتراثه الإسلامي.

ذلك أن كثيراً من الروايات التالفة والأقاصيص الواهية المنحولة، والأحداث المختلقة ، والأحاديث النبوية الموضوعة، قد تسللت إلى تراثنا الإسلامي...

ولو وقف شأن ذلك عند كتب السمر والحكايات، وبعض مصنفات التاريخ - على خطورتها - لهان الأمر ، ولكنَّ ضِرامها نفذ إلى بعض تراثنا الإسلامي، ومصنفاتنا الدينية ، وبخاصة في بعض كتب (تفسير القرآن الكريم).

وقد استغل بعض المستشرقين ومن يسعَون جاهدين لتشويه التراث الإسلامي، وتاريخ المسلمين ، استغلوا هذه الروايات التالفة وجعلوها ذريعة للطعن بالإسلام، وبمقام رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما فعلوا بقصة زواجه الشريف من ابنة عمته زينب بنت جحش، بعد طلاقها من زوجها زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما...،

وسوى ذلك مما ورد في هذا البحث القيم . ومن هنا تأتي أهمية هذا المصنف.

افتتح المؤلف الكتاب بمقدمة موجزة، بيَّنَ فيها سبب التفاته إلى هذا الموضوع المهم والبحث فيه؛ ذلك أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى كتب تفسير القرآن الكريم ليَستجليَ حقيقة ما يقرؤه في قصص الأنبياء والمرسلين وأخبارهم، وحوادث الأمم السابقة ، لِما يكتنفها من أمور عجائب وغرائب، فيجد أوهاماً وخرافاتٍ وأساطيرَ جاءت بروايات شتى ، وقد يتخللها بعض الأحاديث النبوية ، وجُلُّها مكذوب مُلفَّق لا أصل له، سِيق بلا زمام ولا خطام، أدخلها (مَسلمةُ اليهود والنصارى)، في بعض مصنفات التراث الإسلامي، في التاريخ والتفسير والأدب، توسعاً واستفاضة لبعض جوانبَ جاءت موجزة دون تفصيل...، وهذا ما اصطلح العلماء على تسميته بـ : (الإسرائيليات).

ولمَّا كان بعض هذه (الإسرائيليات) يصادم - عن قصد أو غير قصد - بعض الثوابت الإسلامية، من آيات قرآنية كريمة ، أو أحاديث نبوية شريفة، رأى الباحث أنَّ عليه واجب إماطة اللثام عن هذه الإسرائيليات وبيان فسادها، وسوء أثرها في كتب التراث الإسلامي عامة ومصنفات تفسير القرآن الكريم بخاصة ، وما تترك في نفس كل قارئ مسلم من أثر سيئ ، فأخذ على نفسه الكشف عن هذه الإسرائيليات، إحقاقاً للحق ودحضاً للباطل ، ومعذرة إلى الله في القيام بهذه الواجب الشرعي المقدس، لأهميتها ولِما يستشعر نحوها من عظم المسؤولية، وهذا ما أشار إليه في المقدمة، ذلك لأنه لا يجوز الإبقاء على تلك الروايات مبثوثة في تراثنا، دون الإشارة إليها ، والتنويه بخطرها العظيم ، لأنها مصدر ريبة وتشويش، ومعول هدم وتقويض لصرح الإسلام وتراثه ، وإنَّ كل جهد ووقت يبذل في هذا السبيل هو الجهاد الحق.

على أنّ العلماء قد أشاروا إلى أن بعض ما ورد في كتب التفسير لا أصل له ، كما رُوي عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

وأما مدخل الكتاب ، فقد تحدَّث فيه عن الكتب السماوية المعتمدة : التوراة والإنجيل والقرآن .

فصَّل الباحث الكلام على التوراة ، وذكر أنها قد كُتبتْ بعد عدة قرون من وفاة موسى عليه السلام ، نقلاً من صدور الرجال جيلاً بعد جيل ، وأشار إلى ما يعتري هذا من الوهم والنسيان، والزيادة والنقصان ، والتحريف والتبديل ، وخلص إلى أنَّ التوراة التي بين أيدي القوم الآن محرّفة ، وليست

هي التي كلَّم الله بها موسى وأوحاها إليه ، بل هي من تأليف أحبار اليهود ، وإنهم قد زهدوا في التوراة الحقيقية الأصلية وأهملوها، فلما ضاعتْ واندثرتْ ألَّفوا هذه التي بين أيديهم الآن ، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

هُمُ أُوتوا الكتابَ فضيَّعوهُ وهمْ عُمْيٌ عن التوراة بُورُ

وينقل عن (ول ديورانت) : أنَّ اليهود كان لهم آلهة متعددة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا حكاية عن اليهود الذين سألوا موسى عليه السلام، أن يجعل لهم آلهة متعددة، فقالوا لنبيهم: "يا موسى أجعل لنا آلهة كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون"، الأعراف: ١٣٨. كما أنهم لا يؤمنون بالآخرة.

وكذلك بالنسبة للعهد الجديد: الإنجيل ، فقد ناله ما أصاب التوراة من التحريف، واعتراه التغيير والتبديل. وقد كثر تأليف الأناجيل كثرة عظيمة جعلتِ الكنيسة تَنْفيها عنها ، فلم تعترف منها بسوى أربعة فقط ،هي : إنجيل مَتّى وإنجيل مُرقص وإنجيل لُوقا وإنجيل يوحنا . وكلها كتبتْ بعد زمن عيسى عليه السلام بعهود بعيدة ، وكل هذه الأناجيل متباينة ، مختلف بعضها عن بعض ، وكلها مما افْتُري على السيد المسيح عليه السلام .

وتبعاً لما سبق لا يمكن القول بأنَّ كلَّ ما في التوراة الحالية والأناجيل الحالية هي من كلام الله و وحيه سبحانه .

في حين أنَّ القرآن الكريم قد دُوِّن من فم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حالَ نزوله ، فهو الكتاب السماوي الوحيد الذي عصمه الله من التحريف والتبديل ، وقد تكفَّل الله تعالى بحفظه، فقال : ((إنَّا نحن نزَّلْنا الذكر وإنّا له لحافظون)) . (الحجر: ٩) ولذلك قفد جاء النهي عن سؤال أهل الكتاب أو اعتماد أقوالهم، فهم كما قال الله تعالى : ((يُحرِّفون الكَلِم عن مواضعه)) (النساء: ٤٦) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذي أُنزل على نبيكم صلى الله عليه وسلم أحدثُ الأخبار بالله ، تقرؤونه لم يُشَبْ ، وقد حدَّثكم الله أنَّ أهل الكتاب بدّلوا ما أنزل الله وغيّروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : ((هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً))، (البقرة: ٧٩) أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟

وكان من بعض أسباب فُشُوِّ الإسرائيليات ما يُحدِّث به القُصَّاص ، ومشايخ الوعظ في المساجد، إذ أكثروا من إشاعة الإسرائيليات في أحاديثهم ومواعظهم، التي ينشرونها بين العامة ، ولذا لم يُجِز العلماء النقلَ عن أهل الكتاب إلّا في أضيق الأحوال، ما لم يعارض نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً، فإنْ عارضتْ رواية إسرائيلية نصاً شرعياً، فتُرمى لَقَىً، ولا كرامة.

ومن هنا قام الباحث، متصدِّياً لهذا الواجب الشرعي، مُتَجشِّماً كلَّ العناء في تَقْلية - ما أمكن من كتب التفاسير والتاريخ ونخلها قَدْرَ الوسع ، لتنقية ما ورد من الإسرائيليات ، بحسن نية عند بعض المفسرين، الذين أخذوها بسلامة طويَّة عن مَسلمةِ أهل الكتاب ، فيما يخص الأمم السابقة والأنبياء، ليُثْروا كُتُبهم، ويُغْنوا موضوعاتهم بمزيد من التفصيل، دون الالتفات إلى ما قد تترك هذه الروايات من أثر غير حميد في نفوس المسلمين، وإنْ أشار بعضهم إلى نَكارة الذي ينقله ، أو كذِبِ القصة التي يسردها، كما فعل ابن كثير رحمه الله.

ومن المؤرخين مَنْ كان همُّه الجمع والإكثار من الروايات، صحيحة كانت أو تالفة منكورة، وإنْ ساقها بالسند، كما فعل الإمام الطبري رحمه الله، اعتماداً على معرفة أبناء عصره بالرجال والأسانيد، فلما غَبَرَ عصره وانسلخ بعده سنون وقرون، جاءت عصورٌ لا يُعْنَى أهلها بالأسانيد، ولا يبالون برجال الأسانيد، فَمَرَجَ الحق بالباطل، وظن من لا دراية عنده أنَّ كلَّ ما جاء عند الطبري صحيح، واتخذ أهل الزيغ وأصحاب الأهواء ذلك سُلَّماً للطعن في التراث وذريعة للنيل من أفاضل رجالات الإسلام.

ثم جاء مِن بعد ذلك مَنْ قام بحذف الأسانيد من روايات الطبري جملة، تدليساً ووصولاً إلى الطعن في سلف الأمه وتراثها.

لقد أضحى الاهتمام بتنقية التراث من الإسرائيليات أمراً مُلحّاً.

وكان من أكثر التفاسير التي شابتها الإسرائيليات تفسير ابن الكلبي، ومقاتل ابن سليمان الذي كان يُزيِّن أقواله، حتى شاع فيه : ((ما أحسنَ تفسير مقاتل لو كان صحيحاً)) ولو كان ثقة، فإنه كان يأخذ علومه عن اليهود والنصارى.

ومن أجل ذلك رغب الأستاذ الباحث أن يضرب بسهمه في هذا المجال، ليبيّن فساد الإسرائيليات، وشناعة افترائها على الله، إذ نسبوا له سبحانه ما لا يليق بجلاله، وكذا افتراؤها على رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى عباده الصالحين، اذ ترمي الأنبياءَ عليهم صلوات الله وسلامه بكل نقيصة وشنيعة. وقف الباحث طويلاً عند هذه الأباطيل والافتراءات، وقرر - مترسماً خطا العلماء - حكم رواياتها على ثلاثة أقسام:

١- قسم تحرُم روايته، لأنه صدر عن قومٍ قال تعالى فيهم : ((يُحَرِّفون الكلمَ عن مواضعه)) (النساء: ٤٦)
٢-قسم تجوز روايته لإقامة الحُجَّة على أصحابه، قال تعالى: ((قُل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)). (آل عمران :٩٣)
٣-قسم يراوح بين المنع والجواز.

فما علمنا صحته مما لا يخالف عقيدتنا، فلا بأس بروايته، وما عُلِم كَذِبه فلا يروى، والمسكوت عنه فلا نعتقده ولا نكذبه.

وكُتبُ التفاسير كثيرة جداً، حتى قال الزمخشري ((صاحب الكشاف)) يزكِّي تفسيره من بين التفاسير:

إنَّ التفاسير في الدنيا بلا عـــــدد وليس فيها لَعَمْري مِثْلُ كشـــافي

إنْ شئتَ تبغي الهدى فالزمْ قراءتَه فالجهلُ كالداء والكشافُ كالشافي

وذكروا أن التفاسير تجاوز عددها ألفي كتاب، قديماً وحديثاً.

فمنها ما دخلته الإسرائيليات كثيراً، ومنها ما برئ منها، ومنها ما دخلته ندرةً. فأكثر كتب التفسير إيراداً للإسرائيليات : (تفسير الثعلبي) فهو حاطب ليلٍ، مع ما أوعب فيه من الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأفحشها كذباً تفسير مقاتل بن سليمان، فقد كان يروي ما لا يُقرِّه شرع ولا يسوغه عقل.

وكان من أشد التفاسير تصدِّياً للإسرائيليات وإنكاراً لها تفسير ابن كثير، فإنه كان مُحدثاً خبيراً ثقة، يورد الحديث ويذكر درجته، ويسوق الرواية وينبِّئه عليها، ويجتنب القصص والخرافات ما أمكن، وإن أوردها نبَّه عليها.

وقد ذكر منهجه في مقدمة: ((البداية والنهاية)) فقال: ((ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذِن الشارع في نقله، مما لا يخالف كتابَ الله وسنةَ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو من القسم الذي لا يُصدّق ولا يُكذّب)). وقد يعلق على بعض القصص بقوله: ((وفي هذا الإسناد نظر)). ويعلق على قصة فيقول : (فهذا شيء يُستحى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين...)، كما أوضح منهجه في التفسير قائلاً: (والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتملت عليه من الكذب...).

وكذلك كان نهج الألوسي في العصور المتأخرة في تفسيره : (روح المعاني)، فهو من أكثر التفاسير نقداً للإسرائيليات، وتفنيداً لها وانتقاداً لمن توسعوا في الأخذ عنها...

وحين أنهى الباحث حديثه عن الجانب النظري في الإسرائيليات في المقدمة والمدخل، وصل إلى الجانب التطبيقي، وهو أمثلة وشواهد على الإسرائيليات وأنماط لها. وقد استغرق هذا القسم النصيب الأعظم من الدراسة، اذ هو صلب الموضوع وأساسه، فأورد التطبيق العملي على ما سبق الكلام عليه في الإسرائيليات التي تناولت حياة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، في كتب التفاسير، فبدأ مما ذكروه عن آدم وحياته فيما أورده الطبري عنه، وما تعقَّبه الإمام الذهبي والألوسي، والدكتور الشيخ محمد أبو شبهة. كما عرض الباحث لما أوردته الإسرائيليات عن آدم وعمره وحياته مع حواء، إثر مقتل ولده هابيل، وأنه قال في ذلك شعراً يبكي ولده فيه :

تغيّرتِ البلادُ ومَنْ عليها فوجهُ الأرض مُغْبرٌّ قبـيحُ
تغيّر كل ذي لونٍ وطعمٍ وقلّ بشاشةُ الوجه الصبيحُ

وقد طعن العلماء والمحققون في نسبة هذا الشعر المنحول لآدم، وذكر الإمام الذهبي : أن الآفة في هذا الشعر من المخرمي أو من شيخه.

قال ابن سلّام: (وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل منه كل غُثاء : محمد بن إسحاق بن يسار، فكتب في السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قطُّ، وأشعار النساء، فضلاً عن الرجال، ثم تجاوز ذلك إلى عادٍ وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة...، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول مَن حمل هذا الشعر؟ ومن أدَّاه منذ آلاف السنين، والله تعالى يقول: ((وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقى)). (النجم ٥٠). ويقول تعالى : (فهل ترى لهم من باقية). (الحاقة : ٨).

وانتقد الإمام الزمخشري هذا الشعر فقال :(إنه كذب سخيف، فقد صحَّ عن الأنبياء عليهم السلام أنهم معصومون عن الشعر.) ويقول الألوسي: (من قال إن آدم قال شعراً فقد كذب. والحق إنه شعر في غاية الركاكة، والأشبه أن يكون من اختلاق إسرائيلي ليس له من العربية الّا حظ قليل).

ثم يمضي البحث مُفَنِّداً الإسرائيليات في سير الأنبياء الكرام وقصصهم، منذ آدم الى خاتمهم عليهم صلوات الله وسلامهم، نبياً إثر نبي، حتى وصل إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه، فوقف عند قصة زواجه الشريف من ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد سبقت الإشارة إلى هذه القصة في مطلع هذه الدراسة، و وقف الباحث عندها متريّثاً، يُورد أقوال العلماء رحمهم الله في تكذيبها عقلاً ونقلاً وسنداً. كما وقف على ما ساق مقاتل بن سليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم، في زواجه من زينب مما يفضي إلى الكفر عياذاً بالله...، وبعد أن أورد مقاتل هذا الإفك المفترى، علَّق عليه مصرحاً بما يوجب كفره وزندقته ، حين يقول مقاتل: ((فكما هَويَ داود زوجة أحد عساكره، هَويَ محمد ابنة عمته زينب - (حاشاهما عليهما الصلاة والسلام)، ويقول مقاتل حين انتهى من سرد القصة في تفسيره مؤكداً: (وهكذا كانت سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد، يعني: داود الذي هوي المرأة التي فُتن بها، وهي امرأة أُوريا، وكما جمع الله بين داود والمرأة التي هَويها، كذلك جمع بين محمد (صلى الله عليه وسلم) وبين زينب إذ هويها. (نستغفر الله)

ثم يعلق الباحث على ما سبق بقوله: (وهذا الذي قاله مقاتل مستقىً من أباطيل أهل الكتاب، الذين لا يتورعون عن نسبة مثل ذلك السوء إلى أنبيائهم استغفر الله...).

كما تعجب الدكتور محمد الذهبي كلَّ العجب مما فاه به مقاتل، وإنه لا يمكن أن يصدر قوله عن مسلم.

كما تعقب البحث المفسرين في حديثهم عن قصة (الغرانيق)، وما كان بسببها وسبيلها، وما ذكروا من أن الشيطان لبَّس بها على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد فنَّدها الباحث بالأدلة والبراهين، وجلَّى وجه الحق فيها، مثبتاً أقوال أهل العلم على بطلانها وتهافتها.

ثم أُفردتْ الوريقاتُ الأخيرةُ لبعض الإسرائيليات المتفرقة في الظواهر الكونية، كظاهرة الرعد والبرق، وما أوردوا حولها من روايات إسرائيلية، أبان العلم الحديث عن حقيقة حدوثها، مع أن هذا لا يتعارض مع الأدعية النبوية الصحيحة المأثورة عند وقوع مثل هذه الظواهر الكونية، كسماع صوت الرعد، أو الكسوف والخسوف الخ...

كذلك ما جاء عن الأجرام والأفلاك السماوية، كالشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار، وعن خروج يأجوج ومأجوج، وكذا ما ورد في تفسير مفتتح سورة (ق) من إسرائيليات تزعم أن (ق) جبل عظيم يحيط بجميع الأرض كافةً.

وهذا وسواه من خرافات بني إسرائيل، قد فنّدها العلماء، إلى غير ذلك من هذه المتفرقات المفتريات. حتى وصل إلى خاتمة بحثه هذا، فأشار سريعاً إلى ما ورد في ثناياه، مؤكداً أنَّ هذا البحث ما كان ليكون لولا ما وجد من تعارض بعض الروايات الإسرائيلية، التي ملأت كتب التراث عامه و تفاسير القرآن الكريم خاصة ، كما وجد من تناقضها مع نصوص القرآن الكريم وصحيح السنه النبوية، وما فيها من قدْحٍ في الأنبياء وعصمتهم عليهم السلام، مما يجعل القارئ المسلم مشوَّشاً مضطرباً.

وقد استنار الباحث في بيان زيفها بأقوال من سبقه من أهل العلم.

وقد ورد في هذا البحث الثناء على جهود الإمام ابن كثير رحمه الله، في نقده الإسرائيليات، وعدم التشبُّع من إيرادها – وهو حقيق بهذا الثناء خليق به، فقد كان فارسَ هذا الميدان، وكذلك معاصره الإمام أبو حيان الأندلسي المتوفى في مصر، صاحب تفسير : (البحر المحيط)، الذي نأى به عن أقوال الفلاسفة والمتكلمين، وحكايات قصاص المواعظ ، وكذا نَّوهَ الباحث بجهود بعض المتأخرين كالألوسي، صاحب تفسير: (روح المعاني) وشكر صنيعه، وهو جدير بهذا الثناء.

ثم أقتفى أثر الألوسي في تمحيص التفسير من المعاصرين الشيخ الدكتور وهبي الزحيلي رحمه الله تعالى في كتابه : (التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج). وكذا الأستاذ الدكتور فخر الدين قباوه، في عنايته بتفسير الجلالين.

استغرق هذا البحث القيم أربع مئة صفحة، عرضتُ لها بإجمال، وضربتُ صفحاً عن جمٍّ غفير مما فيها، خشية الإطالة والإملال، وحسب القلادة ما أحاط بالعنق.

وقد ضمَّتِ الدراسة المقدمةَ والمدخل وصلب البحث، ثم خُتمت بثبت أهم المصادر والمراجع، ثم قائمة الفهارس.

وبعد : فهذا سِفر نفيس، جدير بالمسلم الغيور قراءته والإفادة منه، وقد كُتب بيراع أديب قدير وقلم باحث متمكن، وريشة شاعر مجيد، وبراعة خطاط مبدع، جمع إلى سَعة الاطلاع رشاقةَ القلم، ونصاعة الأسلوب، وأصالة الفكرة وعمقها، والحياد النزيه في البحث، وهذا حسبه.

جزى الله الأستاذ الباحث محمد أحمد كلزيه خيراً، وبارك جهودَه ونفع بها.

محمد علي كاتبي

الكشف عن الإسرائيليات في كتب التراث

محمد أحمد كلزيّة

أوراق
للنشر والتوزيع والإنتاج الفني

الكشف عن الإسرائيليات في كتب التراث

محمد أحمد كلزية

محمد أحمد كلزية

(باحثا وشاعرا وخطاطا)

إجـازة في اللغة العربية من جامعة حلب 1971
شرف بكتابة نسختين للمصحف الشريف أعجب بها الدكتور عثمان طه.. شارك في ملتقى أشهر خطاطي المصحف الشريف في العالم في المدينة المنورة عام 2011.
له العديد من المؤلفات منها:
-من الإشارات العلمية في القرآن الكريم.
-نهر الخير (شخصيات إسلامية جسدت في سلوكها قيم الدين).
-ومضات (مقالات في الفكر والأدب).
-مختصر كتاب فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر.
-الخط العربي والزخرفة الإسلامية.
-متنبئون ومتألهون.
-من حديث الذاكرة.
-يريد الله بكم اليسر.
-له ديوان شعر مخطوط.

أوراق
للنشر والتوزيع والإنتاج الفني

شيما يونس
SHIMAA YOUNES